القصص

صور من هوميروس

١٦ - حروب طَرْوَادَة

فزع الآلهة . . .

للاستاذ دريني خشبة

قلق زيوس من اعتزام أخيل اقتحام الحرب وكيف لا يقلق سيد الأولمب وكل من الفريقين يصلي له ، ويطلب منه العون ، ويتوسل اليه أن يُظفره بعدوه ، فتنجاب هذه الغاشية التي صرّعت الرجال ، وضرجت أديم الثرى بدماء الأبطال ! !

ودعا اليه أربابه فعقد منهم مجلساً للمشورة ؛ فانتظمهم ديوان الأولمب ، وحفلت بهم ذروة جبل إيدا ، وطفق الاله الأكبر يقلّب الرأي على جميع وجوهه ، ويبحث المسألة من شتى أطرافها ، والأرباب فيما بين ذلك يحملق بعضهم في وجوه بعض ، وتضطرم في أفئدتهم نيران العداوة والبغضاء ؛ لأنهم كانوا جميعاً وقلوبهم شتى ! فهذا فريق منهم يعطف على طروادة ، ويشيد بذكر طروادة ، بل منهم من اشترك في بناء طروادة وإقام أسوارها ، وتحصين صياصيها ؛ والطرواديون من أجل هذا قد أخلصوا العبادة لهؤلاء ، وأقاموا لهم الهياكل المشيدة ، والمعابد المنيفة ، وهم في طويل الأحقاب والآباد ما يفترون عن عبادتهم والأضحيات لهم ، وتقديم القرابين والضحايا بأسمائهم

وفريق آخر من الآلهة يعتبر الشعب الهيلاني شعبه الخالص ؛ فهو لذلك يحدب عليه ، ويرجو الخير له ، وهو أبداً يستأذن سيد الأولمب فيحارب في صفوفهم ، ويشد أزرهم ، ثم الهيلانيون يخلصون العبادة لهذا الفريق ، وهم أبداً يتعلقون بهم ، ويقيمون المعابد لهم في كل حنية من جبالهم ، وبكل منعرج من شعابهم ، ومنهم كل مثال صناع اليد ، مرهف الحس ، رفيع الذوق ؛ وهم لذلك قد ملأوا المعابد والهياكل بتماثيل الآلهة ، حتى ما تقع العين على أجمل منها !

وفريق ثالث لا الى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ينقم على هذه الحرب الشعواء التي سُعِّرت لغير ما سبب يستأهل كل تلك الضحايا ويستحل كل هذه المهج ؛ وهذا الفريق يحنق على طروادة ويحنق على هيلاس على السواء . ويود لو يأذن سيد الأولمب فيزلزل بهما الأرض ، أو يرسل عليهما كِسَفاً من السماء ، فلا يبقى على أحد منهم أبداً ! !

واتفق الآلهة على أن يذهب فريق منهم فيكون في صفوف الطرواديين يرشدهم ، ويدفع عنهم عادية أخيل ، ثم يذهب فريق آخر فيكون في صفوف الهيلانيين يفل من نشاطهم ، ويكسر من سورتهم ، حتى تكون الحرب بين الجمعين سجالاً ؛ وإلى أن يرى الآلهة في شؤون خلقهم رأياً آخر

وانطلقت حيرا مليكة الأولمب ، وميزقا ربة الحكمة ، ثم هرمز رسول الآلهة وقائد الأرواح إلى هيدز . وفلكان الحداد وإله النيران ، الذي فضحه مارس في زوجه ، وبوسيون رب البحار العتيد الذي روّع الطرواديين في هذه الحرب أيما ترويع

انطلق هؤلاء فكانوا في صفوف الهيلانيين

وانطلقت فيتوس إلى صفوف الطرواديين ، وراح في أثرها أبوللو وأمه لاتونا وديان ومارس وإكسانثوس ، وفئة غير هؤلاء من عشاق فينوس

وانبث الآلهة ينفخون في أبواق الحرب

وصاح أخيل في شياطين الميرميدون صيحة داوية . زادتها ميزقا قوة ، فما تركت فؤادا إلا زلزلته ، وما غادرت نفسا إلا تركتها ترجف من خوف وفزع

وكان أبوللو ينظر الى أخيل فيتميز من الغيظ ، ويود لو يبطش به بغدرة من غدراته التي أودت ببتروكلوس من قبل ، ولكنه أحس بفرائصه ترتعد ، وفقاره يندك من الرعب ، لما رأى حول

أخيل من هذه الأرباب المتعطشة للدماء ، لا سيما هذا الإلـه الوحش نپتيون الذى يرسل من عينيه ركانين من الغضب يضطرمان اضطراماً

وآثر أپوللو أن يستخفى فى زى ليكاون بن پريام وصورته ، وأن يذهب من فوره إلى إينياس العظيم مستشار طروادة وأبسل شجعانها بعد هكتور ، فيثيره على أخيل ، ويلهب فيه نخوة الجاهلية التى ســـداها التفاخر بالأنساب ، ولحمتها التباهل بالأحساب ، والتبجح بأنها ابن من سمك السماء ، ودحا الأرض ، وأنبت فيها من كل زوج بهيج !

واستطاع أپوللو أن يهوّن على إينياس من شأن أخيل ، وأن يحقر فى ناظريه خطبه ، واستطاع ببيانه الموسيقى ، وطلاقته السحرية ، أن يدفعه إلى ناحية أخيل ، الذى وقف مكانه يقذف الرعب فى قلوب الطرواديين وأحلافهم ، باحثاً عن غريمه البغيض ، هكتور بن پريام ، يود لو يخلى بينه وبينه فيبطش به ، ويشفى هذا الغلى الذى يتأجج فى جوانحه ، بما قتله أعز أصدقائه ، وأحب الناس اليه

ووقف إينياس تلقاء أخيل ، فتبسم زعيم الميرميدون ، ووعظ المحارب أن يتنى فلا يلقى حتفه ، وذكره بما حدث بينهما قديماً ، حين ساق أخيل قطعان اينياس السائمة فى سفح جبل إيدا ؛ وما كان من فرار اينياس ، هذا الفرار المضحك ، الذى أشمت به الأعداء ، وأثار عليه سُخرية الأصدقاء والأوداء !

ولـكن اينياس ، الذى كان ما يزال مأخوذاً بسحر أپوللو وموسيقاه ، أبى واستكبر ، وهز أعطافه ، ثم أخذته العزة بالأثم ، وانطلق يقذف فى وجه أخيل بهذا التفاخر الذميم الذى لا يجدى فى حلبة الحرب نفعاً ، ولا يجر على صاحبه مغنماً ، يوم لا حكم إلا للمرهف البتار ، ولا قول إلا ما يقول الفيلق الجرار

والتحم المحاربان العظيمان !

وارتطم الصخر بالصخر ، وثار النقع فى الميدان وأظلم حتى قد تهاوت كواكبه ، ونظر الجمعان نظرة القلق الحيران ، وأخذ القدهول يضرب أطنابه على الساحة الحمراء ، ونظروا فرأوا اينياس يستجمع كل قوته ، ويقذف برمحه العظيم فتردد درع ثلـكان ، وإن تكن الطعنة قد شقت منها طبقتين ، وفترت ، فلم تصل الى فؤاد أخيل

وهنا !

اشتعلت نيران الدنيا فى عينى زعيم الميرميدون ، وذاب فى أعصابه حميم من الغضب ، وأرسل بدوره رمحه الهائل يرن على درع اينياس فلا يصيبه بأذى ، ولـكنه ، لعظم الطعنة ، يصرعه ويطرحه فوق أديم الثرى فريسة رخيصة لغوائل الردى ، وضربات الرقاق البيض

وينحنى أخيل من عربته الفخمة ، فيتناول حجرا عظيما ، قد يتعب عشرة من صناديد الرجال فى حمله ، ثم يرفع الحجر ليقذ به جمجمة اينياس . . .

ولـكن ! . . . .

لا ! ينبغى ألا يقتل إينياس ، لأنه ابن زيوس سيد الأرباب ، وهو لو قتل لم يرض به أبوه ألف ألف أخيل ، وألف ألف ميرميدون كلاً أخيل ! . . .

هكذا قدّر نپتيون ! وقُتل نپتيون كيف قدر ! !

لقد أرسلها إلى حيرا ، مليكة الأولمب التى كانت قريبة تشهد الحدث الأعظم ، قولة غير صادقة إلا فى زعم نپتيون !

وعارضت حيرا فى تدخل نپتيون ، ولـكنه ، لشـدة حبه أخيل ، لم يسمه إلا أن يسرع إليـه فينشر أمام ناظريه ضبابة كثيفة حجبت عنهما هدف إينياس ، ثم احتكفأ يحمله بعيداً من أخيل ، حتى انتهى الى صفوف الطرواديين الخلفية ، فسجاه على العشب الأخضر ، وأخذ فى نصحه ألا يجازف بنفسه أمام أخيل كرة أخرى ! !

وكان الجمعان ينظران إلى إينياس محمولاً فى الهواء . . فيأخذ العجب منهما كل مأخذ ! !

* * *

وانمحت الضبابة ، وبطل السحر ، ونظر أخيل فلم يعثر لأينياس على أثر ، وشـدهه أن ينجو خصمه من قتلة محققة ، فيُلقى فى روعه أن إينياس سليل الآلهة كما ادعى منذ لحظة ؛ ثم يشدهه أكثر نجاة الميرميدون والهيلانيين على السواء ، بعد إذ رأوا إلى إينياس محمولا فى الهواء !

ويحفهم أخيل على خوض المعمعة ، ويستطيع بحماسياته أن يلهب فى صدورهم روح الاقدام . . .

ويكون هكتور فى هذه اللحظة تائما فى جنوده يحفهم هو الآخر ويطمئنهم أن الآلهة معهم فلا يخافون ولا يحزنون . ويراه أخيل فيخفق قلبه ، ويملو صدره ويهبط كأنه الخصم الغاضب . ويدفع عربته نحوه ، فتندفع الخيل ، وكأن النيران تنـدلع من عيونها وأنوفها . . . .

وكان أپوللو إلى جانب هكتور ، فلم يرض له أن يلقى أخيل

الذى ما خاض المعمعة الا ليثأر لصديقه بتروكلوس

وكاد هكتور لا يأبه لكلام أبوللو ، وتقدم فعلا ليفي حيل ، ولكن الآله الكبير زجره زجراً شديداً ، ثم أمره بالتقهقر فى الحال ... فانسحب بطل طروادة ، وترك أخيل يحرق الأرض مكانه ، إذ أفلته هذا الصيد الثمين ! !

وانقض أخيل يشفى غيظه بقتل عشرات وعشرات من أبطال طروادة فصرع إيفتيون العظيم ابن عذراء البحر ، ثم ثنى بالكمى الكبير ديموليون ، شج رأسه فانبثق الدم يتفجر منه ، وبرز الخ ، وذهبت روحه إلى هيدز ! ثم ثلث ببطل الأبطال هيوداماس ، شكه شكة فتركه يخور كخوار الثور ، مسوقا إلى مذبح الآلهة ... ثم انقض على بوليدور بن بريام ، ملك طروادة ، فطعنه فى ظهره طعنة صرعته ، ونشرت ظلام الموت فى عينيه ، فهوى إلى الأرض يئن أنينا مؤلما ، أبكى الجند ... وأحزن أخيل نفسه ...

لقد كان بوليدور أحب صغار بريام اليه ، وكان يجرى فيسابق الريح ، وينازل القروم الصيد فيصرعهم عشرات ووحداناً ، فيا حزن أبيه الملك عليه بعد اليوم ! !

وكأن ظلام الموت الذى خيم على عيني بوليدور امتد حتى ظلل عينى هكتور ! ولم تكن الحياة رخيصة فى نظر بطل طروادة مثلها اليوم ، فقد لجمه أخيل فى بوليدور ، فلا بد أن يفجع ذبتيس وبليوس ، والذى أخيل ، فى أخيل نفسه ...

وألهب جياده فاندفعت بعربته ناحية أخيل ...

واستبشر زعيم الميرميدون حين رأى هكتور يسرع ناحيته قدما ، وذكر أنه قاتل بتروكلوس فدارت به الأرض ، وذكر أن بتروكلوس ينتظر ثأره ميتا ولا بد أن يعود أخيل اليه به ، فتقدم نحو هكتور وقال له :

« هلم يا بن بريام فتعجل قتلتك ، وودع الحياة الحلوة التى لن تهنأ بها بعد اليوم ! ! » ونجهم هكتور ، وكلم أخيل فاعترف أنه أقوى منه ، وأطول فى مواقف الحرب باعاً ، ولكنه حذره من الغرور ؛ « ومن يدرى ؟ ! هل أوحت اليك السماء أنك تقتل هكتور ؟ وهل أخذت على المقادير والأقضية عهداً ألا يصرعك هكتور ... » ثم انقض بن بريام فأرسل حربته الظامئة إلى صدر أخيل ، ولولا أن مينرفا كانت إلى جانبه تحرسه ، ولولا أنها زحزحته قليلا فتفادته الطعنة ... لكان أخيل حديثاً من الأحاديث

وبهت أخيل ، ثم صاح صيحة رجف لها جانب الجبل ، وجاوبتها أسوار طروادة ، ورددت أصداءها أجواز السماء ؛ وانقض على هكتور يود لو يقتلعه من عربته فيخبط به الأرض ، وتذهب روحه بعدها إلى الجحيم ! ...

وكان أبوللو إلى جانب هكتور هذه المرة ، كما كان إلى جانبه دائما ؛ وراع الآله الأكبر أن يهجم أخيل تلك الهجمة التى يعجز عن مثلها مارس الجبار نفسه ...

وذهل أبوللو ماذا يصنع ، ليقى بطله من رمح أخيل ؟ !

ثم ذكر ما صنعه نبتيون من أجل ايناس ، فنشر ضبابة كثيفة أمام ناظرى أخيل ، وتقدم إلى هكتور فحمله ، وذهب به الى حيث يكون بنجوة من مصير محزن ، كان يوشك أن ينتهى اليه . . . . .

وظل أخيل يطعن الضبابة ، مشدوه اللب حيران ! !

طعنها مرة ، ثم مرة ثانية ، ثم ثالثة ، ثم ما كاد يطعنها الرابعة حتى امحت وبطل السحر ، وانكشف له الميدان يضج بالجند ، ويعج بعدة الحرب ، ولكنه مع ذاك ، وغير ذاك . . . . خلو من هكتور ! ! . . . . . .

« جميل يا هكتور ! ! صل للآله الذى أنقذك اليوم منى ! صل لربك أبوللو ! لقد أنجاك من قتلة بينة ، وموتة محققة . . . صل له يا هكتور ! ولكن ثق أننا سنلتقى بعدها ، ولا أدرى هل ينقذك الآلهك عندها ؟ ! إن لى أربابى التى تحمينى ، والتى إن فوجئت بغادر مثلك فهى تنجينى . . . . . سنلتقى يا هكتور . . . . فصل الآن لأبوللو واشكر له . . . . . »

* * *

وثار أخيل فكان زوبعة !

وطفق يصرع أبطال طروادة ، فطعن دريوپس طعنة اخترمت حياته ، ثم جندل دماخوس وأسرعت روحه إلى أمواج ستيكس المنصهرة ، وتقدم فأطاح رأس دردانوس العتيد ، وجال جولة هنا وجولة هناك ، فكانت المنايا تتعثر أنى ذهب ، وأبان صار ، فهذا تروس البطل ملق على الأرض والدم ينبثق من كبده ، ومولیوس الصنديد زائغ العينين يتوجع مما ألم به ، وإخكلوس ابن أجينور تساقط نفسه حشاشات ، ثم ديكاليون الذى دوخ الجيوش وروع الأبطال ، وبث اليتم فى كل دار ... ها هوذا فوق الثرى صعيداً جرزاً ، وجثماناً يتدفق الدم من جراحه ... نهاية حمراء لحياة حمراء ... كلها حرب وتقتيل !

ورجموس ! !